العدد (2127) السنة الثامنة - الأربعاء (11) أيار 2011 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الـــواردة في الصفحة تعبر عـن وجهات نظر كتابها ، وقـد لاتتفق بـالضرورة مع وجهة نظر الجريـدة

على هامش الصراحـة

مكان السائق

إحسان شمران الياسري

بعض الناس تستغرقه البساطة، فيفهم الأمور على عادته وسريرته، وعليك التصديق إن بعضهم يفهم الأشياء على حدود افتراضاته.. فيسألك أن تنجز المعاملة، وعليك أن تستجيب ويريدك أن تقود السيارة وهي بلا وقود.. ويريدك أن تتقدم عشر خطوات وأنت حافي القدمين.

والناس يحملون بعضهم على سبعين محملاً.. ولكن (بطونهم) لا تتحمل إلى الواحد والسبعين، فيتعاركون ويقعون ببعضهم شتماً، وضرباً.. بينما صاحبنا ينظر إليهم معتقداً أنهم يمزحون.. ونقول في ذلك (مثل عرس الخرسة!!) التي شاهدت القرية تحترق، ورأت خطيبها يفرش العباءة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من (الكهربائيات وأجهزة الموبايل!!) فاعتقدت أنه يفرش لوليمة العرس.

والقصص من هذه الشاكلة تصدق على كل الأشخاص الذي يعملون في المؤسسات او يتعاملون معها.

فيوم صعد سيد مهدي في الباص الخشبي، الذي ينتظر ساعة التحرك من المدينة إلى الريف، جلس في مقعد السائق، مثلما جلس بقية الركاب في مقاعدهم المتناثرة في الباص.. وقبل التحرك، جاء مساعد السائق (ونسميه السَكِن) يجمع الأجرة.. فوجد أبو صالح أمامَ المقود والباص ممتلئ بالركاب.. قال له بلطف.. (عمي اصعد وره) فلم يكترث أبو صالح، وطرده بإشارة من طرف (خشمة).. فلما ألح المساعد بأن يخلي المكان، كان رد أبو صالح أكثر جفاءً وقسوة وعندها، اعتقد مساعد السائق أن الرجل لم يلتفت إلى دلالة المكان الذي يجلس فيه، فأرادَ تذكيره بحقيقة أساسية عمي هذا مكانِ السايق)، وعندها انتفض صاحبنا صائحاً بالمساعد المسكين (والسايق ابن الملك، ما يكعد وره!!).

مرة أخرى بعد سنوات من خداع الشعارات

متــى يعــي سياسيونــا أنّ الظـروف قـد تغـيرت ؟!

طارق الجبوري

في موضوع سابق استعرضنا باختصار شديد ظروف نشأة الأحزاب العربية،ونتائج سيطرة صيغ الانقلابات العسكرية على واقعنا وظروفها، وانتهينا بتساؤل عن الذي جرى وما هي النتيجة التي سنحاول ان نركز عليها في هذا الموضوع.

ابتداءً لا يمكن للتقييم الموضوعي المنصف ان يتغافل ماتحقق في مرحلة الخمسينيات من القرن الماضي وما تبعها من منجزات كثيرة تحققت بضغط جماهيري وبفعل ظروف المرحلة التي يبدو انها دفعت الأنظمة للقيام بها كتأميم قناة السويس وقوانين الإصلاح الزراعي وقانون رقم ٨٠ وغيرها، وبغض النظر عن الدوافع لتشريع مثل هذه القوانين، فان محصلة ما تحقق من منجزات كان يمكن ان تتعمق وتنضج وتتطور لو تنازلت زعامات تلك المرحلة عن بعض أنانيتها واعتمدت قليلاً من التطبيق الديمقراطي وإشراك بقية القوى والتيارات السياسية في الحكومة، وفسحت المجال للمواطنين والإعلام بممارسة دورهم على وفق حرياتهم في التعبير عن الرأي وحقهم بتشكيل المنظمات وغيرها من الممارسات التي كان يمكن ان يكون لها ابلغ الإثر في تعميق ما تحقق من خطوات تحمل طابعاً وطنياً لكنها استثمرت من قبل الأنظمة لإسباغ قناع من الشرعية عليها، وهكذا فبدلاً من ان تخطو هذه الأنظمة خطوات أخرى تتجه لخدمة المواطنين عمدت الى اتخاذ منهج، هو في حقيقته منسجم ومخططاتها في تثبيت مواقعها في السلطة، منهجاً مغايراً ولا يمت بصلة لشعاراتها في الحرية وتغليب مصلحة الجماهير التي كانت ترفعها، كان ابرز سماته تصفية أي قوى معارضة و تكثيف جهودها وطاقاتها لقمع كل رأي مخالف مهما كان بسيطاً، بل وصلت الأمور الى حدود خطيرة عندما بدأت (الثورات تأكل أبناءها) دون رحمة.

وفي حمى شهوة السلطة وصولجان الحكم تم التنكيل بخيرة المناضلين الذين غيبوا في غياهب المعتقلات وصفوا، أما من حالفه الحظ فقد صار نصيبه الترحال والتنقل اضطراراً من حضن نظام (تقدمي) لآخر، وهو يجتر خيباته وحسراته ويرى ما آمن به وعمل على تحقيقه من أهداف يضيع من بين يديه ووجد نفسه هو وملايين المواطنين فريسة الأنظمة "القومية التقدمية" وجبهات "الصمود والتصدي" التي رددت الشعارات الرنانة على شاكلة حلف العمال والفلاحين وبترول العرب للعرب وتحالفات الأحزاب والمنظمات الشعبية والتقدمية وطبعاً حرب التحرير الشعبية زوراً و حولت أجمل المبادئ واسماها بالتدريج الى "بضاعة كاسدة" تنفر منها الغالبية التي تحملت اكثر من غيرها ممارسات سلطات ظالمة من جانب فيما دفعت من جانب آخر ثمن خطأ تقديرات الأحزاب السياسية وتحالفاتها التي أضفت الشرعية على أنظمة لم يعد همها تصفية المعارضين فقط، بل قلع جذور أي بذرة يمكن ان تنمو وتنتج تيارات تفضح سلوكياتها المنحرفة والبعيدة عن كل ما يجري في العالم من متغيرات لضمان إطالة عمرها أكثر مما ينبغي واستمرارها على إدارة الحكم الذي تحول مرة أخرى الى توريث مقيت.

وفي صورة كهذه تحولت أوطاننا الى خرائب ينهش أبناءها الجوع والقهر والمرض، رافقها تعسف وقهر ليس لهما حدود، بل وصل الحال بالمواطن في العراق بشكل خاص الى البحث عن أية وسيلة للخلاص مما هو فيه، بعد ان يئس من إمكانية إجراء التغيير من الداخل بانقلاب عسكري او سواه من الوسائل.

وبقينا لسنوات مخدرين نعيش تحت تأثير شعارات هذه الأنظمة "التقدمية"، التي لم تعد تقبل حتى النقد من اجل التقويم وصارت تعد كل صوت يخالف نهجها بمثابة دعوة استعمارية ورجعية. ضمن هذه الأجواء جاءت أحداث التاسع من نيسان ٢٠٠٣ لتشكل في أحد أوجهها حالة (الضرورات التي تبيح المحظورات)، ونظرت الأغلبية من الشعب الى ما حصل بانه نقطة تحول كبيرة يمكن ان تنقل العراق وشعبه الى عوالم أخرى تمهد لإعادة الاعتبار للمواطنة التي انتهكت اذا ما أحسنت القوى الوطنية التعامل معها، رغم ما تكبده البلد من خسائر جراء الانهيار الذي هز بنيان الوطن والمجتمع على حد سواء، فكيف سارت الأمور والى أين؟

معروف انه ومنذ ان حدث التغيير او الاحتلال، سمه ما شئت، والمواطنون بمختلف مكوناتهم يسعون باتجاه الدفع الى تثبيت دعائم العملية السياسية الجديدة بشكلها الصحيح، والوصول الى مرحلة التصرف بعيداً عن هيمنة العامل الخارجي سواء الأميركي او غيره او تداخلات العامل الإقليمي والعربي في الشأن العراقي، بقيت الغالبية الشعبية تنتظر وتراقب الذي يجري ويحصل بين التيارات السياسية وعلاقاتها المتشنجة التي انعكست على الوضع العام، ومع كل الأخطاء فإن الشعب العراقي بكل مكوناته ظل متشبثاً بخياره الجديد ويدفع باتجاه تصحيح مساراته وشارك بفاعلية بثلاثة انتخابات الأولى انتخب فيها الجمعية الوطنية والثانية والثالثة لانتخاب أعضاء مجلس النواب، ولم تكن النخب السياسية بمختلف مشاربها تغفل ما تريده الجموع المسحوقة والمحرومة، لذا تراها تعدل برامجها بحسب ما كان يضغط به الشارع ويطمح اليه، فجاءت شعاراتها وبرامجها جميعاً قبل انتخابات آذار/٢٠١٠ مملوءة بدعوات إصلاح العملية السياسية وتخليصها من شوائب المحاصصات بكل أنواعها.

ومرة أخرى تخذل الأحزاب قواعدها وتلتف عليها وتحاول خداعها، عندما حاولت إخفاء طبيعة صراعاتها الطائفية والفئوية الحزبية والعشائرية في عملية تشكيل الحكومة التي تأخرت أشهراً عدة ولم تأت متكاملة بسبب استمرار نفس النهج والسلوكيات بتغليب المصالح الضيقة على حساب مصلحة الوطن والمواطن، بل الأسوأ، وكما يدور في كواليس الكتل، ان مزايدات جرت على كراسي في مجلس النواب والحكومة على حد سواء، فياً لخسارة سنوات الانتظار الطويلة، لم يكن خافياً على المواطن ما يجري في دهاليز السياسة من اتفاقات، وكان يراقب وينتظر وهو يضع يده على قلبه وجلاً من عواقب ما ستجره مظاهر اللهاث على المناصب من تداعيات على مجمل العملية السياسية من مظاهر من بينها الفساد الذي نخر ببنيان كل شيء، فلم يجد غير التظاهرات وسيلة ليعلن من خلالها رفضه كل محاولات التلاعب بمصالح العراق، وكان ان تحرك الشباب هذه المرة ليكون هو نبض الشارع والمعبر عن ارادته بعيداً عن كل هياكل الأحزاب السياسية القديمة والجديدة التي حاولت ان تركب موجة الاحتجاجات الشعبية لكن محاولاتها جاءت متأخرة وشكلية فرفضها الشباب ومن معه من شرائح شعبية.

التظاهرات حالة جديدة أرادت ان تقول للجميع ان الشعب قد تعلم الدرس ولم يعد يرضى بغير الإصلاح الحقيقي والتغيير الفعلي بديلاً عن سوءات نخب لم تع طيلة السنوات الماضية ما يحصل وما يجري من حولها، فاتكأ بعضها على أجندات خارجية في حين حاول الآخر استغلال الدين كغطاء لتمرير سلوكياته، وكلا المسلكين مفضوحان ومرفوضان، اما بقية التيارات الوطنية ممن ظلمت بلعبة قانون الانتخابات فمن المؤسف انها ما زالت دون مستوى الحدث، ويبدو انها تعيش على تاريخ وأمجاد ونظريات تحتاج الى وقفات تأ مل و دراسة لتتلاءم مع الواقع ومع ما يرضي طموح المواطن.

المهم ان ما يجري الآن من مظاهر احتجاج في العراق وحتى اللحظة، رغم بعض الاستثناءات، في إطار العملية السياسية وتقويمها، لكنه، وهذا ما ينبغي ان تعيه الكتل والأطراف السياسية، ليس عابراً ولا تعبيراً عن مزاج اني، انه رغبة قوية للتغيير من اجل العراق الجديد.. فهل تعي نخبنا السياسية ذلك؟

أســـئلـــة فـــي الـــدولـــة

الحـــداثـــة وأزمـــة الـــثـــقـــافـــات المـــحـــافـــظـــة

قد لا يبدو غريبا الحديث عن الوجه الآخر للصراعات التي بدأت تتمظهر في الجغرافية السياسية، والتي ترتبط عوامل صناعتها بالشروط الداخلية المعقدة والملتبسة لهذه الجغرافيا، مثلما يمكن ان ترتبط بما تصطنعه لها القوى الكونية الجديدة من عوامل ومؤثرات ومصادر تمويل سرية ومخابراتية، وقد لا يبدو في هذا السياق ان تحمل هواجس ما تبقى من سسيولوجيا الحداثة مفارقات أكثر رعبا في إثارة المزيد من الأسئلة بشأن مصير الإنسان في هذه الصراعات، وحول كينونته وسط عالم يبحث عن شهوة أخرى للاندماج، هذه الغرابات، تضع نفسها إزاء أنماط استلابية لمظاهر هذه السياسات الصراعية، ولأنماط أخرى من الثقافات التابعة التي فقدت شرطها في البطولة الأخلاقية، والتي أوهمت الإنسان ذاته بقسوة الحرية، وعذابات السلطة، وضياع الهوية، والتباس الإرادة، إذ تبدو تلك السياسات وكأنها استعادة لقوة الأخ الكبير، الأخ العراب والماسوني، والعابر للجنوسة العائلية، والحائز على شفرة دستوفسكي وليس دافنشي براون، اذ يشاطر الآخرين في بحثه عن (الرب) القديم، الرب الحامي، والرب الذي يمكن الاطمئنان الى قداسته الحمائية.

علي حسن الفواز

لا أظن ان العولمة في هذا السياق هي الوجه الآخر لسياسة الأزمات الصانعة لهذه الصراعات، ورغم توحشها ورغبتها السرية في التلصص على الخصوصيات واليوميات، وأنهاك الهويات السلالية والعقائدية في صراعات ثانوية من الصعب السيطرة على قوانينها الداخلية، إلاّ ان هذه العولمة في وجهها الغامض قد جلبت للفقراء الكثير من الأوهام، مثلما جلبت للأغنياء الكثير من صكوك الغفران، والصكوك البنكية، والأدهى انها أعطت للصوص الكونيين الخرائط السرية المؤدية الى كل طرق الحرير في العالم، وأحسب ان هذه الامتيازات، هي التي جعلت السياسيين قريبين جداً من اللصوص، وجعلت الثوار والفقراء يشبهون الصعاليك في الثقافات العربية القديمة، ثوار وفقراء وأصحاب ظاهرة صوتية، لكنهم دائما خارج الأبواب، وأعطت للصراعات ملامح أكثر بشاعة، وأكثر مرونة وقابلية للترحال من جغرافيا الى جغرافياً أخرى. صناعة الخصوصيات في هذه اللعبة، والإيهام بالتخلص من لزوجة الصراعات، تظل محاولة للهروب الى أمام، ليس لان الخصوصيات والثقافات العائلية والهويات اللامركزية مضرة بالسياق والأسواق والاندماج القهري، بقدر ما ان هذه الخصوصيات تحتاج دائماً إلى قواعد استثنائية في (سسيولوجيا) الهيمنة التي باتت تحكم الأمم، والسياسات والثروات والصراعات، وهذه القواعد تعني المزيد من الخسائر، والمزيد من الإيديولوجيات والعقائد المتشددة، وكذلك المزيد من الإرهاب والعنف والثقافات التي لا تصنع اطمئنانا للآخرين، ولعل ما يدعيه البعض من مفهوم القرية الكونية الصغيرة بات حيزا محكوما بالقوة الاجتماعية للنظام الاتصالي، ومحكوما بالنظام المخابراتي الذي يتنصت حتى على فحيحنا الجنسي!! لم يعد مقبولا بالكامل، لان هناك الكثير من الفشل بدأ يرافق تطبيق شروط هذه اللعبة، وان الكثير من الصراعات خرجت عن(المخطط لها) خاصة في ما يتعلق بصناعة (الثورات) او السعي الى تغيير نمطية الحكم، ومفاهيم السلطة في العالم القديم الذي يريد البعض إسقاط آخر يافطاته الإيديولوجية والعسكرية مع كل تبعات السقوط الذي أنهى الشيوعية السوفيتية، والبحث عن ثوار من طراز آخر، ثوار يمكن النوم بجوارهم دون أسلحة تحت الوسادة، ويمكن قراءة ملفاتهم دونما البحث عن احكام جنائية دوغمائية.

هذا التقدير (النظري) لعقدة الصراعات، وصناعة الأمكنة التي تدور فيها، وحتى صناعة (حصان طروادة) لكل صراع منها، وجد في الشارع العربي الكثير من الممانعة الإجرائية!! وأحياناً الكثير من الرفض، إذ أن الكراهية، والخوف، والإحساس بالاطمئنان، قد اقترن أيضاً بالعديد من مظاهر النسيان الحداثي التي تورطت فيها الاستعمارات القديمة والحديثة، وكذلك طبيعة ما تساقط من الصراعات الدولية وحتى الإقليمية، والذي قد اوجد نوعا من التوحش في العقائد والايديولوجيات وحتى في السياسات والدفاع عن الهويات القاتلة كما يسميها أمين معلوف، وهذا التوحش أصاب العديد من الدول والعديد من الأفكار والجماعات وأسبغ على سياساتها ملامح غرائبية من الصعب إدخالها في لعبة الاندماج الدولي القهري، ومن الصعب أكثر تركها خارج السياق، لانها ستتحول الى دول مارقة حسب التوصيف الأمريكي، والى دول لإنتاج العنف والإرهاب بشروطه الطالبانية.

تصاعد وتائر الصراعات الدولية، وفشل الدول التقليدية في التعاطي مع مفاهيم صناعة الدولة الحديثة، وفشلها أيضاً في أعطاء شعوبها المزيد من الحريات والحقوق والسلم المدني، أسهم بشكل كبير في وضع العالم أمام زحزحة كونية، وأمام اغترابات عميقة، والتي نجد في الثورات العربية وحركات الشباب والاحتجاجات الشعبية مظهراً اجتماعياً لها، وليس سياسياً!! مثلما نجد تصاعد التهديدات الإرهابية التي تهدد الغرب وأمريكا بالمزيد من الانتقام من السياسات والعولمة والحداثة، والتي تحولت الى مظاهر للحديث عن الكفر العالمي الذي يجب التصدي له. فضلا عن ان فشل النخب السياسية والثقافية العربية أسهم هو الآخر في نكوص إنتاج أية ظاهرة حقيقية للتحولات الاجتماعية الكبرى، لان هذه النخب المطرودة والمهمشة، إما تعيش بعقلية التابع، او عقلية المهاجر، وكلا الأمرين ليس صالحا لإنتاج نمط من الثوار العقلانيين او دعاة الحريات الذين يشبهون الثوار والدعاة الذين سبقوا إعلان الثورة الفرنسية!!

الحداثة والنكوص

ما هو بالضد من الحداثة يعني القدامة كما تقول ثنائيات التقابل اللغوي، ولكن ما هو التعبير عن رفض هذه الحداثة بكل وجوهها، الذي سيضع هذه الحداثة وكأنها عارية تماماً، احسب ان النكوص الى المرجعيات المحافظة المغلقة على نفسها وعلى الآخرين باتت هي الفأس المقدسة التي يحملها الثوار الفقهاء، وبالاتجاه الذي يجعل هذه المرجعيات أشبه بالجدار الحمائي، والثقافة الصيانية التي تواجه إجراءات الحداثة والعولمة والسياسة والحروب وحتى الثورات غير القياسية!! لذا نجد ان صور الثقافات المحافظة، بما فيها ثقافات التدين المتطرف، والتدين الشعبي، وسطوع نجم الفقهاء ودعاة الاستبداد، والتبشير بالعنف الذي يقود الى الجنة! والعنف الذي يقوم على نزعة التكفير والطرد، تحت يافطة النكوص والتضليل الى وهم المقدس، او وهم نظرية ولي الامر الذي يجب ان يطاع حتى لوكان ظالما ومستبدا وقاتلا لشعبه، وربما وهم البطل الثوري الذي خرج قبل عقود من معطف الحركات التي رافقت الانعتاق من الاستعمار القديم، وتحول الى عسكري انقلابي قاسي الطباع، والى إيديولوجي متعال لا يطوله الاثم من فوق او تحت!! وبعضهم من توهم بانه الثوري الخالد الذي يحتاج الى متحف عائلي ومقبرة عائلية والى مدونين يدونون يومياته العابرة للزمن والجسد والقيم.

ان الاعتراف بالعودة الى المحافظة، او النظر الى هذه النزعات بنوع من الريبة سيضع جغرافيا محددة من العالم امام صراعات من نوع آخر، صراعات ستنتج المزيد من الفقراء والمهمشين، والمزيد من العنف والحروب الداخلية التعويضية، اذ لا يمكن للعالم الجديد ان يتورط مرة أخرى في حرب كونية، خاصة وان طبيعة التحولات التي تجتاح العالم الشرق أوسطي الذي يملك ثلث ثروات العالم اقترنت بصناعة أنظمة شوهاء، أنظمة لديها استعدادات دائمة للحروب الداخلية، لانها أنظمة تعيش صراعاتها الداخلية الاثنية والدينية والطائفية والتي لا تصحو منها، والتي تضطرها أحياناً للجوء الى الآخر لإنقاذها من الخراب الداخلي، او التخلص من طغيانات او بطولات داخلية خارقة للمألوف!! واحسب ان الغرب وأمريكا قد اكتشفت هذه اللعبة جيدا، لعبة حصر الحروب والأزمات والصراعات والإرهاب والعنف في جغرافيا محددة واستقطاب كل مغامري الإرهاب في العالم للانخراط في فضاءات هذه الجغرافيا لممارسة شهوة الحرب أولاً، وممارسة القتل المتبادل ثانيا، بما فيها صناعة الصراعات الطائفية التي أضحت عنواناً كبيراً مرشحا لإمكانية إعلان الحرب القادمة، ولصناعة الخنادق القادمة والتي تحتاج الى الكثير من الهيجان والى الكثير من الضحايا، والى الكثير من الإيهام بالموت المقدس أيضاً، وطبعاً هذا يحدث تحت أنظار العولمة الغربية التي ترى عبر منظوماتها كل ما يتمظهر في هذا المشهد، بما فيه امتصاص الخلايا النائمة في أوروبا وأمريكا للاشتراك في هذه اللعبة التي تتحول تحت الكثير من الشحنات الدعائية الى ساحة واسعة ومفتوحة للجهاد، ومن يتخلى عن الجهاد فهو كافر.

ان النكوص الذي أصاب الكثير من الثقافات ذات النزوع اليساري، اثار جدلا حول تاريخ الثقافات وأدوارها في صناعة أنماط قابلة للتداول والاستعمال، اذ ان الشعارات الليبرالية والديمقراطية واليسارية تحولت الى شعارات عائمة، والمريدون القدامى باتوا متقاعدين، وحالمين بمدن من اليوتوبيا القديمة، اذ لا دماء جديدة واسعة تديم حيوية الجسد، وان ما يبدو على السطح الآن، هو بعض علامات الرغبة التي تشبه الكثير مما حدث في فرنسا في الستينيات خلال غلواء الاحتجاجات الطلابية التي قادها المثقفون اليساريون، والتي اسقطت رمزية ديغول، لكن هذه الغلواء مات حلمها مع صعود قوى البرجوازية التقليدية في فرنسا وانتصار النظام المؤسسي الصارم، وثقافاته المحافظة التي عاشت بتناغم ساحر مع اليمين الديغولي وعاشت أيضاً مع النمطية البرجوازية لاشتراكية ميتران.

هذا المعطى يبدو خارقا بالقياس الى ما يحدث في الشرق العربي، إذ الأحداث تجري هنا، وكأن العالم بات قريبا من الجحيم، وان دعاة الإنقاذ يجب ان يبادروا لإنقاذ الأمة من الانهيار، وحماية الملة من الغزو الصليبي كما يقول القذافي! او حماية الشرف العقائدي والمقدس الإيديولوجي والسلطوي من الفتنة المذهبية كما يقول بعض فقهاء السلطة في البحرين والسعودية، فالتفكير بالتدين المتطرف أصبح هو المثال الذي تروج له الفضائيات والسياسات، واتجاهات الفقه التقليدي وأحياناً من يدعون انهم من أصحاب الوسطية في الإسلام، وان النكوص عن الحداثة والعولمة يتأتى عبر استعادة هذا النمط من التفكير، واصطناع الأعداء المفترضين الذين يجب مقاتلتهم وإرهابهم بكل الوسائل، خاصة وان ثقافة النكوص وجدت في بعض تقنيات العولمة فضاء للتعبير عن هذا التفكير المضلل من خلال الفضائيات التي تحث ليل نهار على الحرب، وعلى كراهية الناس بعضهم للبعض الآخر، والحديث عن الصحوة الجديدة للثقافات المحافظة والتدين المحافظ التكفيري الحامي للنوع والطائفة الناجية، بعيداً عن مقاربة أصل الأزمات، وعلائق هذه الأزمات بمشاكل الفقر والجهل والخراب التنموي، وهشاشة برامج التعليم وسوء إدارة الموارد، وطبيعة منظومات الحكم الاستبدادية التي حرمت الشعوب من حرياتها وحقوقها، واصطنعت مجتمعات هشة، قادرة على التفاعل مع الشروط التاريخية الإنسانية والمعرفية والبنائية والأخلاقية للحضارة والتمدن والحداثة والعولمة. ان الغلو في ربط الأزمات التي تحدث في الجغرافيا السياسية بمظاهر الإيهام بالمقدس، تقابله الكثير من الدعوات المضللة لإشاعة مظاهر مغالية للنزعات المحافظة في الوعي والحرية والحقوق، وكذلك التعاطي مع مظاهر غريبة عن الروح الإسلامية المتسامحة، وتحريم كل الاتجاهات الحقوقية التي يمكن ان تسهم في تشكيل مظاهر ايجابية للوعي الاجتماعي، وللقوة الأخلاقية التي تتبنى الدفاع عن الحقوق والحريات وقبول الآخر بصفته الشريك في الديموغرافيا الوطنية والإنسانية. عودة هذه النزعات وضعت المجتمعات أمام مشكلات خطيرة، وأمام تحديات أمنية وتنموية وحقوقية صعبة، مثلما وضعت الفكر الديني ذاته أمام تحديات صعبة، خاصة وان الجميع يدرك تاريخ الرسالة الإسلامية في تعاملها مع الحقوق والعدالة والمساواة والمرأة، وتعاملها الإنساني الكبير مع إتباع الأديان الأخرى، والتي جعلت من الرسالة الإسلامية مقبولة في كل البلدان التي دخلها الإسلام، ولكن تعقيدات السلطة التي حولت التدين الى شعارات والى دائرة استعمالية للفقه الذي يخدم توجهاتها وسياساتها، بدأت الكثير من تداعيات هذا التحويل بترك الأثر على طبيعة ما يمكن ان تنهض به الثقافة الدينية من مسؤوليات بمواجهة أزمة التعقيد وأزمة التكفير وأزمة تكريس السلطة والمغالاة في وصف السلطان وصلاحياته، والتي استشرت في العقود الأخيرة للتحول بعض اتجاهاتها الى مؤسسات للإرهاب والقتل والإقصاء.

أزمة الثقافات.. أزمة الدولة

تمظهر الأزمات تعكس في جوهرها أزمة التشكيلات البنوية العميقة للدولة ولنظامها المؤسساتي، فضلاً عن أزمة التشكيلات الثقافية للنخب الاجتماعية والسياسية، اذ ان غياب ظاهرة الدولة العادلة وغياب النظام المؤسساتي والحقوقي الذي يؤطر عملها، أسهم الى حد كبير في صعود القوى النقيضة للدولة، أي الجماعات التي تتمترس بالايديولوجيا والقوة الاثنية، او القوة الراديكالية العنفية، وأخيراً بالقوة الإعلامية التشهيرية بنمطية فتاواها وخطابها الملتبس، والتي تحولت الى قوة تهديد للدولة وللجماعات النقيضة، وهذه التداعيات أسهمت في صناعة مظاهر لاتجاهات باتت تشكل جزءاً من الظاهرة الاجتماعية للثقافات المحافظة والمتطرفة، يقول الباحث في الإسلاميات عمار علي حسن ان هذه الظواهر كرست (سيطرة ثلاثة اتجاهات أساسية، أولها تنامي (الثقافات الشعبية الرخوة) التي لا ينضوي تحت أي مؤسسة اجتماعية او دينية واضحة الملامح، بما لها من أفكار وطقوس ونظم. وثانيها ازدياد بعض «التدين السلفي» الذي يضيق بالتنوع والحوار، ويتوهم أتباعه بأنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة والقاطعة. وثالثها ظهور ما يمكن تسميته بعض الحركات الكارزمية التي تتوالد وتتكاثر باستمرار، مستغلة ثورة الاتصالات ومتوسلة بالفضائيات والشبكة العنكبوتية (الإنترنت) ومنتجة فوضى من الفتاوى والاجتهادات والتفاسير) هذه الظواهر بتعددها تضع هذه القوى الجديدة في سياق أشكالي أكثر تعقيداً، اذ ان اتساع بنائها القاعدي، وتهديداتها الدائمة للمجتمع الدولي، يضعها بمواجهة إدامة هذا البناء، وتأمين الفاعليات الاقتصادية والسياسية والثقافية التي تفتقر الى ابسط المقومات الإنسانية، وحتى الادعاء بشرطية الجهاد واستحقاقاته في التعفف والتصوف والتعالي عن شجون الدنيا والعيش في شظف وعوز لا يمنح هذه القوى فرصة حقيقية للاندماج في بيئات اجتماعية وسياسية تتفاعل كل يوم مع قيم الحداثة والعولمة والانسنة والسياسة في سياقاتها المحكومة بالمصالح، والصراعات، مثلما هي محكومة بالنظام والدستور والحقوق والرقابة، ومع الحاجة الى الدولة كنظام سسيوسياسي يؤطر عمل الجماعات، ويحمي المجتمع الحقيقي الحاضن لتلك الجماعات ليس تحت قسوة الاندماج الجبري، وانما في سياق الخيارات التي باتت مظهراً إنسانياً لنموذج الدولة الحداثية.

وبالتالي فان التبشير بالنمط المحافظ من الثقافات وانماط التدين التكفيري للجماعات المتشددة فقد هو الآخر فرصته في تقبل فكرة الدولة الدستورية، والقبول الشرعي بالحكم المركزي الذي يتيح لسلطة الجماعة وولي الأمر، ويضع فكرة المجتمع كقوى وفعاليات ومكونات وهويات خاضعة للجماعة تحت نظام التابعية او دافعي الجزية او الخاضعين لسلطة ولي الأمر. أزمة شيوع ثقافات الجماعات المتشددة، يعكس عبر حقب طويلة من الصراعات أزمة وجود الدولة، وهذه العلاقة تتصاعد كلما فقدت الدولة قدرتها على مواجهة هذه الجماعات والسيطرة على مصادر تمويلهم الإيديولوجي والمالي والعسكري، وإيجاد صيغ صالحة لإعادة تأهيل البنى المؤسساتية الاجتماعية والثقافية والإنسانية، للسيطرة على مظاهر الفقر ومظاهر الحرمان الاجتماعي والاقتصادي، فضلا عن تأهيل المؤسساتية الإعلامية والثقافية لتكون جهات فاعلة في مجال انسنة القيم الاجتماعية والتربوية والثقافية والجمالية، وإشاعة قيم النماذج الصالحة بموازة السيطرة على مصادر إنتاج خطاب العنف، وبالتنسيق مع جهات البث والإرسال والتي ينص نظامها الداخلي على منع إشاعة ثقافات وصور العنف والكراهية والطائفية.

وبالاتجاه الآخر العمل على تنمية الثقافات الإسلامية التي تتجوهر بقيم السماح والرحمة والتآلف والحوار ومراعاة حقوق الآخرين، وتوظيف تقنيات العولمة بما فيها الانترنت والتواصل الاجتماعي لإشاعة هذه الاتجاهات وفي أوساط عدة، وخلق جهات ضغط ثقافية لمواجهة مهيمنات الثقافات المضللة والرسائل العنفية، والتي تشجع على الإرهاب والكراهية، فضلاً عن العمل على تعزيز وتنمية دور البناء التعليمي بكل مراحله ومستوياته، وبما يجعل البيئة المدرسية والجامعية بيئة تنافس علمي وثقافي، وفضاء مفتوح لحوار الثقافات الإنسانية التي تتفاعل من اجل تنامي وتعاظم دور المعرفة والجدل والنقد في بناء العقل الإنساني، وتأكيد دور الدين كنظام للحياة في إدامة الروح البناءة الطامحة للأمل والتآلف والتآزر بين كل المكونات المجتمعية.

السلفيون يحرزون أهدافاً

فريدة النقاش

قبل أيام من اغتيال المتضامن الإيطالي مع الشعب الفلسطيني (فيتوريو أريجوني) في منتصف ابريل/نيسان الماضي جرى اغتيال المسرحي الفلسطيني (جوليانو خميس) في مخيم جنين، وفي مطلع مايو/أيار قام الجيش الأمريكي في باكستان بقتل (أسامة بن لادن). وهناك وشائج عميقة بين عمليات القتل الثلاثة.

وكانت واحدة من الجماعات السلفية الجهادية التي أطلقت على نفسها اسم (كتائب الصحابي الهمام محمد بن مسلمة قد قتلت (أريجوني) بعد ساعات من اختطافه في غزة حيث أمهلت حكومة حماس ثلاثين ساعة للإفراج عن زعيمها المعتقل لدي حماس هشام السعيدي الملقب بأبي الوليد المقدسي.

تتأسس أفكار هذه الجماعات (السلفية الجهادية) على العودة إلى التراث الإسلامي، والسعي لإنشاء دولة إسلامية بواسطة حرب جهادية ضد الغرب الصليبي الذي يحمي إسرائيل، وقد سبق لهم أن قاموا بالاعتداء على أماكن عبادة مسيحية في مناطق متفرقة من القطاع، وفجروا مقاهي للإنترنت في غزة باعتبار الإنترنت من اختراع الغرب الكافر، فهم يرون الغرب كتلة واحدة صماء معادية لا مجال فيها للتفاوت والصراع الاجتماعي والسياسي واختلاف الرؤى والأفكار الذي يمكن أن يؤدي إلى مواقف لمنظمات وأفراد يناصرون قضايا الشعوب مثلما فعل (أريجوني)، اريجوني الذي كان قبل مقتله يعد كتابا بعنوان (ابق إنسانا) يسجل فيه تجربته كمناصر للشعب الفلسطيني رغم أنه لا ينتمي لفلسطين جنسية أو دينا. بل قالت أمه بعد مقتله (أن من قتل ابني لا يحب فلسطين ولا ينتمي لها).

أما المسرحي (جوليانو خميس) وهو ابن صليبا خميس أحد القادة الفلسطينيين السابقين للحزب الشيوعي الإسرائيلي، فهو الحزب الذي يضم إسرائيليين وفلسطينيين وأمه أرناميز اليهودية التي كافحت ضد الصهيونية وتبرعت بقيمة جائزة نوبل البديلة التي حصلت عليها لتأسيس مسرح الحجر عام ١٩٩٣، وهو المسرح الذي هدمته آلة القتل الوحشية الإسرائيلية عام ٢٠٠٢ .

وقام قتلة ملثمون من الجهادية السلفية في الرابع من ابريل باغتيال الممثل والمخرج السينمائي جوليانو الذي عمل مع شباب مخيم (جنين) رافعاً شعار (الفن طريق لبلوغ الحرية) وكان يعد العدة لتدريب ٣٠ ألف شاب وفتاة علي جانبي الخط الأخضر في كل فنون المسرح، وقام القتلة باغتيال هذه الفكرة رافضين إمكانية أن يكون هناك مسيحي أو يهودي ضد الصهيونية.

وحين قال جورج بوش الابن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بعد قصف جماعة (بن لادن) لبرجي مركز التجارة في نيويورك ومقر وزارة الدفاع في واشنطن سنة ٢٠٠١ إنه سيشن حربا صليبية جديدة ثم قام بغزو أفغانستان كان يطبق فكرة مشابهة للسلفية الجهادية ، فكرة ينقسم العالم بمقتضاها إلى فسطاطين: خير وشر. ومن قبل كانت المخابرات الأمريكية ونظم الحكم في السعودية ومصر والإمارات وفرنسا قد مولت وسلحت منظمة (طالبيان) التي ولدت القاعدة من رحمها لتحارب الكفار السوفييت، فالعالم ينقسم إلى كفار ومؤمنين، وهي الفكرة نفسها التي بلورتها في ما بعد منظمة القاعدة، أي أن الحرب الكونية في نظر أسامة بن لادن وجماعته هي بين الإسلام من جهة واليهودية والنصرانية من جهة أخرى باعتبارهما ديارا للكفر، والإسلام دار الإيمان. يلتقي الجهاديون السلفيون قتلة أريجوني وخميس مع كل من أسامة بن لادن ومنظمة القاعدة والمحافظين الجدد الأمريكيين من المسيحيين الصهاينة عند نقطة واحدة فاصلة هي التقسيم الوهمي للعالم بين الكفر والإيمان، ويضعون في خانة الكفر كل ما هو حديث وديمقراطي وعلماني وتقدمي ويغطون على الانقسام الأصلي والواقعي بين الامبريالية من جهة والشعوب المكافحة من أجل التحرر من جهة أخرى، وبين العاملين المنتجين والكادحين من جهة وهم من كل لون وجنس ودين وبين الذين يستغلونهم ويمصون عرقهم من جهة أخرى، وهم بدورهم يأتون من كل لون وجنس ودين.وتدفع الشعوب المكافحة من أجل الحرية والعدالة ثمنا باهظا لهذا التشويه للصراع وهي تفقد فيه بعض أشرف الرجال والنساء، ونتذكر هنا أن جماعات إسلامية تحمل نفس الأفكار في الجزائر قتلت مئتي مثقف من النساء والرجال لأنهم علمانيون وديمقراطيون.

ويظل على القوى التقدمية والمستنيرة في بلادنا، وفي كل مكان من العالم أن تبين للشعوب حقيقة الصراع وأن تبث المعرفة بهذه الحقيقة في كل مكان، فالمعرفة قوة وأداة حاسمة من أدوات الانتصار في معركة الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية في كل مكان سواء ضد الامبريالية والاستغلال أو ضد السلفية الجهادية والتكفير.